عصمة دم الجنين المشوه

إعداد فضيلة الدكتور
محمد الحبيب بن الخوجة
عضو المجمع الفقهي الإسلامي
برابطة العالم الإسلامي


أبيض

عصمة دم الجنين المشوه

الحمد لله مستحق الحمد العزيز الرحيم، القوي المتين، مالك الملك فلا يخرج عن ملكه شيء من الموجودات أعيانها وأفعالها، كلها في قبضته، قد توزعها بتقديره وحكمته وفضله وعدله، فسبحان الله رب العالمين.

والحمد لله أوفى الحمد وأتمه وأكمله، حمداً يسع كل معلوم ويشمل كل مقدور، فلا يتخلف عن ذلك شيء من نعمه السابغة وحكمه البالغة التي اكتنفت بمشيئته ولطفه ورحمته وفضله هذا الجود عامة في ماضيه وحاضره ولاحقه، فلا نحصي ثناءً عليه ولا شكرا، هو كما أثنى على نفسه.

ونصلي ونسلم على عبده ورسوله محمد، سيد المرسلين، وإمام المتقين، وخاتم النبيين، وحجة رب العالمين، أعرف الناس بربه، وأخشاهم له، وأقربهم منه، وأحبهم إليه، وأعلاهم منزلة لديه بما خصه به تعالى من مناقب، ومنحه من سجايا، وطبعه عليه من خلق، وشرح صدره به من حكمة، وملأ قلبه به من علم لدني، فما زال يدعو إلى ربه عن يقين وبصيرة، يحمل الأمانة ويبلِّغ الرسالة حتى أتاه اليقين.

وهذا كتاب الله الكريم والسُنة النبوية الشريفة يوجهان الإنسان في حياته، ويحملانه على الاستبصار والتدبر، ويضعانه أمام آيات الله في الآفاق: ﴿ **وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ** ﴾ [**فصلت**: ٣٩]. ثم يضعانه أمام نفسه ترقيا به إلى مرتبة إدراك الألوهية، ومعرفة أسرار الخالقية، والتسليم والإيمان بوجود الواحد الأحد الخالق البارئ المصور الذي بيده كل شيء وهو على كل شيء قدير، فيخاطبه الله جل شأنه بقوله: ﴿ **وَفِي الأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾** ﴾ [**الذاريات**]. إيحاء بمراحل التكوين العجيب للبشر، إذ خلقه الله أطواراً، وميز كل طور عن غيره

وكل مرحلة عن سواها. وقد كشفت هذه الآية الكريمة كما قال شيخ الإسلام العلامة محمد الطاهر بن عاشور تغمده الله برحمته: عن تفرد الله سبحانه بالألهية، إذ لا يقدر على إيجاد مثل الإنسان غير الله تعالى. فإن بواطن أحوال الإنسان وظواهرها عجائب من الانتظام والتناسب، وأعجبها خلق العقل وحركاته، واستخراج المعاني، وخلق النطف، والإلهام إلى اللغة، وخلق الحواس، وخلق الدورة الدموية، واتساق الأعضاء الرئيسية وتفاعلها. وتسوية المفاصل والعضلات والأعصاب والشرايين وحالها بين الارتخاء واليبس، فإنه إذا غلب عليها التيبس جاء العجز، وإذا غلب الارتخاء جاء الموت[1].

وبهذا الإبداع في الخلق وما يتصل به من خصائص ودقاته نطقت آيات كريمة كثيرة منها: ﴿مَا لَكُمْ لا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾﴾ [نوح]، وقوله عز وجل: ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الإِنسَانِ مِن طِينٍ ﴿٧﴾ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلالَةٍ مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ ﴿٨﴾ ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٩﴾﴾ [السجدة]، وقوله سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ﴿٦﴾ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ ﴿٨﴾﴾ [الانفطار]، وقوله عز وجل ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ [غافر: ٦٤]، وقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [آل عمران: ٦].

فالله هو الخالق وحده المصور المبدع أوجد الإنسان أكمل إيجاد، فسواه أحسن تسوية، كاملة أجهزته، متناسبة أعضاؤه، في أدق صورة وأبدعها، متنقلاً به بين الكون والفساد في مرحلة العمر: من سلالة من طين كانت أصل خلقته إلى نطفة من ماء مهين أودعت في قرار مكين. ومن طور إلى آخر حتى صار مضغة مخلقة كاملة المقومات بديعة التركيب. قد جعل منها الزوجين الذكر والأنثى، ونفخ الله فيها من روحه فتحرك الجنين في الرحم تحركاً إرادياً بسريان اللطيفة الروحانية في الكثيفة الجسدية، ومن جنين إلى

---

(١) ابن عاشور، التحرير والتنوير: ٢٦، ٣٥٣-٣٥٤.

أن خرج طفلاً ثم صار فتى وبلغ أشده، ثم صار شيخاً، وهو في كل الأحوال يجد من العناية الإلهية ومن كمال معاني الربوبية لطائف الإمداد المتوالية التي تحقق مصلحته، وتوفر راحته، وتمكنه من القيام لله بالعبودية.

قال ابن القيم: «فإذا تفكر الإنسان في نفسه استنارت له آيات الربوبية، وسطعت له أنوار اليقين، واضمحلت عنه غمرات الشك والريب، وانقشعت عنه ظلمات الجهل. فإذا نظر في نفسه وجد آثار التدبير فيه قائمات، وأدلة التوحيد على ربه ناطقات، شاهدة لمدبره، دالة عليه، مرشدة إليه، إذ يجده مكوناً من قطرة ماء: لحوماً منضدة وعظاماً مركبة، وأوصالاً متعددة مأسورة مشدودة بحبال العروق والأعصاب. قد قمطت وشدت بجلد متين مشتملاً على ثلاثمائة وستين مفصلاً ما بين كبير وصغير وثخين ودقيق، ومستطيل ومستدير ومقيم ومنحن، وشدت هذه الأوصال بثلاثمائة وستين عرقاً للاتصال والانفصال والقبض والبسط والمد والضم والصنائع والكتابة»(١).

وقد صور القرآن الكريم أدق أطوار الخلق وتاراته التي ألمعنا إليها بقوله: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا**﴾ [**الحج**: ٥]، ثم زاد ذلك تفصيلاً وبياناً – يستوجب الوقوف عند كل طور من أطوار الخلق الجنيني للتدبر والتفكر – في قوله عز وجل: ﴿**وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ** ﴿١٢﴾ **ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ** ﴿١٣﴾ **ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ** ﴿١٤﴾﴾ [**المؤمنون**].

ومن الآيتين الكريمتين تتبين لنا جملة أطوار التكوين، وقد وردت مفصلة متمايزة أيضاً فيما روي عن الإمام علي كرم الله وجهه في قوله في العزل يرد على من وصفه بالوأد الصغير: «لا تكون موؤدة حتى تمر على التارات

---

(١) ابن القيم، التبيان في أقسام القرآن: ٣٠٣، ٨٤.

السبع: تكون سلالة من طين، ثم تكون نطفة، ثم تكون علقة، ثم تكون مضغة، ثم تكون عظاماً، ثم تكون لحماً، ثم تكون خلقاً آخر. فقال عمر رضي الله عنه: صدقت، أطال الله بقاءك»(١).

فإذا أردنا أن نتبين الأطوار الجنينية من النطفة إلى الخلق الآخر، وننظر إليها من قريب كما تبدو في الصور والأشرطة التي سجلها لنا العلماء، ويؤكد حقائقها بصفة دقيقة علم الأجنة الحديث وجدنا:

أن النطفة تتشكَّل بصور ثلاث: فهي أولاً عبارة عن السائل المنوي أو نطفة الرجل، والبييضة أو نطفة المرأة، ثم بامتزاجهما تتكون الأمشاج أو الزيجوت أي البييضة الملقحة. قال تعالى: (هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكورا إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعاً بصيرا). ويتم ذلك عادة في اليوم الرابع عشر من موعد بدء الحيضة الأخيرة وبه يكون الحمل، ويحدث التلقيح في الثلث الوحشي لقناة الرحم (أنبوب فالوب)، وإثر حدوث الإخصاب يحيط بالبييضة جدار سميك يقيها من أي تسرب من الخارج ثم تنشطر تلك البييضة الأمشاج إلى خليتين وكل خلية إلى مئات الخلايا وتتكون منها تويتة Morulla تتحول إلى كرة جرثومية تدعى الأريمة Blastule(٢).

وفي اليوم السادس من التلقيح تتكون العلقة، وتنغرز في اليوم السابع الأريمة في جدار الرحم محاطة بدم متجمد وتتكون لها طبقتان: الأديم الظاهر، والأديم الباطن. وفي اليوم الثامن تتمايز خلايا طبقة الأديم الظاهر إلى مجموعتين: الأرومة الغاذية أو الخلايا الخلوية، والخلايا الموجهة المحددة المعالم والجدر. ويحدث مثل هذا التمايز في الأديم الباطن بتكون طبقتي الأكتودرم الخارجية والأنتودرم الداخلية، ويظهر شق صغير أعلى الطبقة الأولى مكوناً بداية تجويف الأمنيون (السلي) وفي اليوم التاسع يظهر شريط

---

(١) ابن رجب، جامع العلوم والحكم: ٤٦.
(٢) د. البار، خلق الإنسان: ١٩١–٢٠٠.

من الخلايا يمتد من الطبقة الداخلية ويتصل بخلايا الأديم المتوسط مكوناً كيس المح الأولي، وتنغرز الأديمة بكاملها داخل الرحم وتقفل الفتحة الجدارية التي دخلت منها. وفي اليومين الحادي عشر والثاني عشر تحدث تغيرات في جدار الرحم وتظهر بداية أول الدورة الدموية، ويتم الاتصال بين الجنين وبين الدورة الدموية الرحمية ويتبع ذلك نزيف من الرحم في اليوم الثالث عشر بسبب زيادة الدورة الدموية، وتنمو خلايا الأرومة الغاذية وتظهر الخملات الأولية، وفي اليوم الرابع عشر في نهاية الأسبوع الثاني يبدو الجنين ممثلاً في قرصين متلاحقين في الجزء الأمامي أي من جهة الرأس وكذلك في المنطقة المؤخرية.

ومن اليوم الرابع عشر إلى اليوم الحادي والعشرين أي خلال الأسبوع الثالث يأخذ القلب البدائي في النبض ويتكون اللوح الجنيني ذي الثلاث طبقات وينمو التجويف المحيط بالجنين تجويف المشيمة، ويبقى الجنين معلقاً في هذا التجويف بواسطة المعلاق إلى الغشاء المشيمي المعلق أيضاً بجدار الرحم(١).

وبين الحادي والعشرين إلى الثلاثين من يوم التلقيح تتحول العلقة إلى مضغة، وتظهر على السطح منها من جهة الرأس الكتل البدينة واحدة من كل جانب، ثم يتوالى ظهورها من الرأس إلى مؤخرة الجنين، وترتسم على الكتلة جملة شقوق تقسمها إلى قطاعات، ويبلغ عدد الكتل عند اكتمالها من اثنتين وأربعين إلى خمس وأربعين كتلة من كل جانب.

ويكون ترتيب ظهورها على النحو التالي:

الكتل الأربع الأولى العليا وهي الكتل المؤخرية، ثم على التعاقب على الكتل الثمان العنقية، فالاثنتا عشر الصدرية، فالكتل الخمس القطنية، فالكتل الخمس العجزية، فالكتل الثمان إلى العشرة العصعصية، وفي أثناء ظهور الكتل البدنية الأخيرة، أي ما بين الأسبوعين الخامس والسابع تكون الكتل الأولى قد تمايزت إلى قطع هيكلية عظمية وقطع عضلية، وتظهر بذلك بدايات العمود

---

(١) د. البار، خلق الإنسان: ٢٠١-٢٤٢.

الفقري، وعلى أساس ظهور هذه الكتل يستطيع العلماء أن يحددوا أيام عمر الجنين. وفي هذه الفترة التحولية الثالثة التي أسميناها المضغة وبخاصة فيما بين ٢١-٢٨ يوماً يبدأ الجهاز العصبي في التكون، ويتخلق جذع الدماغ الذي سيتحكم في التنفس، فإذا بلغ الجنين خمسة وثلاثين يوماً تكونت الأطراف العليا، وإذا بلغ اثنين وأربعين يوماً ظهرت الأطراف السفلى، وبعد أسبوع واحد من بدوها تتكون العضلات في العليا والسفلى على التعاقب وتتكون الدورة الدموية. ويبدأ القلب في العمل في نهاية الأسبوع السادس وبداية السابع إلى آخر العمر. وتتميز الغدة التناسلية إذا كانت خصية في اليوم الثالث والأربعين وتتأخر عن ذلك قليلاً إذا كانت مبيضاً(١).

فسبحان الخلاق العليم البارئ المصور الحكيم الذي شمل ابن آدم من يوم خلقه وبدايات تكونه بأسرار عنايته وكريم رعايته. حدث البخاري عن مسدد قال: ١٠٢ حدثنا حماد عن عبيد الله بن أبي بكر، عن أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إن الله وكّل بالرحم ملكاً يقول: يا رب نطفة، يا رب علقة ، يا رب مضغة. فإذا أراد أن يقضي خلقاً قال: أذكر أم أنثى؟ أشقي أم سعيد؟ فما الرزق؟ والأجل؟ فيكتب في بطن أمه»(٢).

ومثله حديث حذيفة بن أسيد يرويه مسلم: «إذا مر بالنطفة اثنتان وأربعون ليلة بعث الله إليها ملكاً فصورها وخلق سمعها وبصرها وجلدها ولحمها وعظمها ثم قال: يا رب أذكر أم أنثى فيقضي ربك ما يشاء»(٣).

وفي هذا من مظاهر المنن العلوية واللطائف الربانية ما فيه إذ يأتي الملك بإذن ربه إلى الرحم التي وكّل بها من اليوم الأول ليشرف على أطوار الخلق ويتابع مراحل التكوين، فإذا تم الخلق الأول تدخل الملك ثانية فسأل ربه عن جنس الجنين ويقضي ربك ما يشاء.

وإثر ذلك وفي الأسبوع الثامن على التحديد يتم تكوين الوجه، ويخلق

---

(١) د. البار، خلق الإنسان: ٢٤٣-٢٧٦.

(٢) ابن حجر، الفتح: ١. ٤١٨، ١٧، ٣١٨.

(٣) د. البار، التشوّهات الخلقية في الجنين: مرحلة ما بعد ١٢٠ يوماً: ٤٢-٤٧.

الله السمع والبصر، ويزداد الجنين بعد ذلك نمواً وتتكامل أعضاؤه، حتى إذا بلغ الأسبوع السادس عشر أي قرب نهاية الشهر الرابع أو نحو المائة والعشرين يوماً بدأ الخلق الآخر، ويستمر ذلك إلى الأسبوع العشرين فيتم في ذلك الطور تكوُّن المخ والخلايا المخية العليا والخلايا العصبية، ويرزق الإنسان بل الجنين كل الأجهزة التي يحتاجها في حياته وتقوم عليها أفعاله الإنسانية وتصرفاته الإرادية ويكون له بها الإحساس والفكر والذاكرة والخيال ونحو ذلك(١).

وهذا الطور الجديد طور الخلق الآخر هو الذي يكمل به الخلق ويأتي فيه الملك أيضاً وتُنفخ فيه الروح، يشهد بذلك حديث عبد الله بن مسعود قال: إن رسول الله – وهو الصادق المصدوق – قال: «إن أحدكم يُجمع في بطن أمه أربعين يوماً، ثم علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يبعث الله ملكاً فيؤمر بأربع: برزقه وأجله، وشقي أو سعيد، ثم ينفخ فيه الروح ...»(٢).

ونحن وإن كان ليس موضوعنا في هذا المقام أن نورد كل أحاديث الباب ونقارن بينها ونحاول الجمع بين ما ظاهره التباين والتقابل منها مثلما فعل ابن القيم(٣) وابن حجر(٤) وابن رجب(٥) والدكتور البار(٦)، لكننا نؤكد بحسب ما قدمناه أن التخليق يتم في مرحلة مبكرة في الأربعين الأولى وبداية الأربعين الثانية، وأن تمامه بتكوين المخ والجهاز العصبي يقع في نهاية الأربعين الثالثة وبداية الأربعين الرابعة، وأن الجسم الجنيني بعد ذلك حتى الولادة لا يعرف إلا نمواً عادياً.

وهكذا فإن الأطوار التي ذكرناها لتخليق الجنين والتي تفصل ما ورد التصريح به في الآيات الكريمة والأحاديث النبوية الشريفة تمر دون شك

---

(١) د. البار. التشوهات الخلقية في الجنين: مرحلة ما بعد ١٢٠ يوماً: ٤٢-٤٧.
(٢) ابن حجر. فتح الباري: ١١, ٤٧٧، ٨٢، ١.
(٣) ابن القيم. التبيان: ٣٤٥، ١٠٤، طريق الهجرتين: ٧٤.
(٤) ابن حجر. الفتح: ١١، ٤٧٧-٤٨٦.
(٥) ابن حجر. جامع العلوم: ٤٤-٥٢.
(٦) د. البار. خلق الإنسان: ٣٩٠-٤٠٤، التشوهات الخلقية: ٦-٢٠.

بمراحل هي اثنتان عند ابن القيم، نأخذ ذلك من قوله: «فإن قيل الجنين قبل نفخ الروح فيه هل كان فيه حركة وإحساس أم لا؟ قيل كان فيه حركة الاغتذاء كالنبات، ولم تكن حركة نموه واغتذائه بالإرادة، فلما نفخت فيه الروح انضمت حركة حسيته وإرادته إلى حركة نموه واغتذائه»(٢٤)، وهي ثلاث مراحل عند ابن سينا وعند الفخر الرازي. قال د. البار في تحديد ذلك:

إن الحياة التي تظهر في الجين لها عدة مراحل:

١- المراحل الأولى المبكرة (قبل الأربعين) وهي حياة للخلايا ويمكن تسميتها حياة خلوية.

٢- مرحلة الأربعين وما بعدها، وهي حياة قد اكتملت فيها عناصر البقاء وتسمى الحياة النباتية Vegetative Life وربما جاز تسميتها بالحياة الحيوانية.

وقد ذكر ابن سينا في الشفا، ونقله عنه الفخر الرازي في كتابه (المباحث الشرقية)(٢٥) إن القوى النفسانية منقسمة إلى ثلاثة أقسام:

(أ) النفس النباتية: وهي كمال أول لجسم طبيعي آلي من جهة ما تتولد وتغتذي.

(ب) النفس الحيوانية: وهي كمال أول لجسم طبيعي آلي من جهة ما تدرك الجزئيات وتتحرك بالإرادة.

(ج) النفس الإنسانية: وهي كمال أول لجسم طبيعي آلي من جهة ما تفعل الأفاعيل الكائنة بالاختيار الفكري والاستنباط بالرأي ومن جهة ما تدرك الجزئيات من الأمور الكلية.

ثم ذكر أن للنفس النباتية ثلاث قوى:

(أ) القوة الغاذية: وهي التي تغذي الجسم.

(ب) القوة المنمية: وهي التي تسمح بنمو الجسم.

---

(١) ابن القيم. التبيان: ٣٥١-١٠٦.

(٢) الفخر الرازي. المباحث المشرقية: ٢، ٢٢٧، ٢٣٨.

(ج) القوة المولدة: وهي التي تسمح بإيجاد أجزاء مشابهة نتيجة انقسام الخلايا.

وذكر أن للنفس الحيوانية قوتين: محركة ومدركة، وتنقسم المحركة إلى عدة أقسام وكذلك المدركة.

واعتبر سائر هذه القوى هي النفس الحيوانية.

٣-مرحلة ما بعد ١٢٠ يوماً (الحياة الإنسانية):

وهي المرحلة الهامة التي تتكون فيها الخلايا العصبية في المخ، وتكون في أوج نشاطها، وتبدأ من الأسبوع السادس عشر (١٠٦) يوم وتنتهي في الأسبوع العشرين (١٤٠) يوم، وتشهد زخمة التكاثر والنمو للخلايا العصبية في فصي المخ، حيث توجد مراكز الحركة والإحساس والكلام والمعرفة والفكر والروية والذاكرة والعاطفة، أي كل المراكز التي يكون بها الإنسان إنساناً وبدونها يبقى في حياة أقرب إلى حياة النبات.

فإذا ماتت خلايا فصي المخ ولم يبق إلا جذع الدماغ حياً، كانت تلك الحياة غير إنسانية، بل تسمى حياة نباتية Vegetative Life كما قد مر بنا في قصة كارين آن كرنيلان الأميركية وسيسيليا بلاندي الإيطالية[١].

﴿ **هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ** ﴾ [**لقمان** : ١١].

أودع الله سبحانه النطفة الأمشاج كل عناصر الحياة، وجمع فيها كل خصائص الإنسان وسماته وشياته، وغرس فيها جميع الصفات الوراثية والمكتسبة، وأعدها أيما إعداد لتسير بعد في أطوار التكوين الدقيقة ومراحل الخلق العجيبة، طوراً فطور ومرحلة إثر مرحلة، وفق سنن الله الخالدة التي لا تتبدل ولا تتحرف ولا تتخلف، حتى إذا بلغت تلك النطفة غاية الإبداع في الصنع، وصورها ربك فأحسن تصويرها، رفعها الله جل جلاله عن المستوى النباتي والحيواني ونفخ فيها من روحه لترتقي بهذا الخلق الآخر الخلق

---

(١) د. البار. التشوهات الخلقية: ٤١-٤٢

الجديد من سلالة الطين التي تشارك فيها الحيوان إلى حقيقة الإنسان الذي وهبه كل خصائص الارتقاء والكمال والعقل وجعله خليفة في الأرض.

وهذا الخلق السوي الباهر لا يمكن أن يوحي إلا بالتسليم للخالق بالألوهية، والانقياد لجلاله بالعبودية، والإيمان به إيماناً خالصاً لا ينقضه شرك ولا يبطله زيغ، ولا يعرض بالعبد إلى تعطيل الآيات ونقض ما أراده الله من الخلق، ولذلك نهى سبحانه عن قتل النفس وقتل الأولاد في آيات كثيرة، فقال جل وعلا:

﴿ **قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُم مِّنْ إِمْلاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ** ﴾ [**الأنعام**: ١٥١].

وقال سبحانه: ﴿ **وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا** ﴾ [**الإسراء**: ٣١].

وقال عز وجل: ﴿ **وَلا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ** ﴾ [**الإسراء**: ٣٣].

وقال تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰ أَن لاَّ يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلا يَسْرِقْنَ وَلا يَزْنِينَ وَلا يَقْتُلْنَ أَوْلادَهُنَّ** ﴾ [**الممتحنة**: ١٢].

وقد توعد سبحانه من قتل النفس بعقوبات دنيوية وأخروية:

﴿ **وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا** ﴾ [**النساء**: ٩٣].

وقد عد أئمة المسلمين وفقهاؤهم الإجهاض من أنواع القتل ورتبوا عليه أحكاماً، والإجهاض - ويقال أيضاً الإسقاط والطرح والإملاص - عبارة عن إلقاء الحمل ناقص الخلق أو ناقص المدة تلقائياً أو بفعل فاعل[١].

ولا يختلف تعريفه عن هذا لدى الفقهاء وهو عند الأطباء عبارة عن خروج محتويات الرحم قبل اثنين وعشرين أسبوعاً تحسب من آخر حيضة حاضتها

---

(١) الموسوعة الفقهية بالكويت: ٢: ٥٦.

المرأة أو عشرين أسبوعاً من لحظة تلقيح البييضة بالحيوان المنوي(١).

وطبيعي عندما نأخذ في الاعتبار المراحل التي أشرنا إليها والتي يمر بها الحمل في بطن أمه أن نجد اختلافاً وفرقاً بين مواقف الفقهاء من الإجهاض في بعضها لتباين التقديرات والاعتبارات التي على أساسها انبنى الاختلاف بينهما.

وإذا كانوا قد أجمعوا على تحريم الإجهاض إذا دخل الجنين المرحلة الإنسانية، أي بعد اكتمال التخلق ونفخ الروح فيه وبلوغه مائة وعشرين يوماً، وعدوه جريمة قتل وجناية على حي متكامل الخلق ظاهر الحياة لا يحل ارتكابها(٢) فإن بعضهم قد حمل ذلك على إطلاقه حتى قال ابن عابدين: «لو كان الجنين حياً ويخشى على الأم من بقائه، فإنه لا يجوز تقطيعه لأن موت الأم به موهوم، فلا يجوز قتل آدمي لأمر موهوم»(٣)، والبعض الآخر وهم من المتأخرين ذهبوا إلى جواز إسقاطه إذا ثبت من طريق موثوق به أن بقاءه بعد تحقق حياته يؤدي لا محالة إلى موت الأم. وعللوا ذلك بأن الشريعة بقواعدها العامة تأمر بارتكاب أخف الضررين، وأنه لا يجوز أن يضحى بالأم وهي الأصل وقد استقرت حياته ولها حظ مستقل في الحياة، ولها حقوق وعليها واجبات في سبيل إنقاذ جنين وإن كان مكتمل الخلق، لأنه الفرع ولم تستقل حياته ولم يحصل على شيء من الحقوق والواجبات(٤).

وأما قبل ذلك، أي عندما يكون الجنين في المرحلة الخلوية، أي في حالتي النطفة والعلوق قبل الأربعين يوماً من الإخصاب أو بعدها، أي في

---

(١) د. البار. خلق الإنسان: ٤٣١.

(٢) الشرح الكبير مع حاشية الدسوقي: ٢، ٢٦٧. حاشية الرهوني: ٣: ٢٦٤، ابن رشد. البداية: ٢، ٣٤٧.
البحر: ٨، ٢٣٣، حاشية ابن عابدين: ٦٠٢/١، ٣٧٨/٥. فتح القدير: ٢، ٤٩٥.
نهاية المحتاج: ٨: ٤١٦، حاشية الجمل: ٥، ٤٩٠، حاشية البحيرمي: ٣، ٣٠٣.
الانصاف: ١٨٦٠١. الفروع ١: ١٩١. المغني: ٧: ٨١٥.
المحلى: ١١، ٢٩ - ٣١. البحر الزاخر: ٧، ٣٥٦، الروضة البهية: ٢، ٤٤٤. شرح النيل: ٨: ١١٩، ١٢١.

(٣) ابن عابدين : ١، ٦٠٢.

(٤) محمود شلتوت. الفتاوى: ٢٩٠.

المرحلة النباتية الواقعة ما بين الأربعين يوماً والمائة وعشرين يوماً فإن الفقهاء اتجهوا في ذلك وجهات متعددة.

الوجهة الأولى تحريم الإجهاض في كلا الطورين السابقين وهو مذهب المالكية، قال الدردير: «لا يجوز أي يحرم - كما يفيده السياق - إخراج المني المتكون في الرحم ولو قبل الأربعين». قال الدسوقي: «وهذا هو المعتمد»[١].

ويزيد تأكيداً لذلك قول ابن رشد «إن مالكاً قال كل ما طرحته المرأة من مضغة أو علقة يعلم أنه ولد ففيه الغرة» وقال: على أن مالكاً استحسن في إسقاط الجنين الكفارة، ولم يوجبها لتردده بين الخطأ والعمد فيه[٢]. وهذا هو المتجه من مذهب الشافعية وفاقاً لابن العماد وغيره[٣] وهو رأي الإمام الغزالي: «الاستجهاض والوأد جناية على مولود حاصل، فأول مراتب الوجود وضع النطفة في الرحم فيختلط بماء المرأة فإفسادها جناية، فإذا صارت علقة أو مضغة فالجناية أفحش، فإذا نُفخت الروح واستقرت الخلقة زادت الجناية تفاحشاً ...»[٤]، بهذا الرأي أخذ الحنابلة، ذكر ابن الجوزي وهو ظاهر كلام ابن عقيل وابن قدامة[٥].

الوجهة الثانية القول بكراهته، وهو رأي بعض الحنفية. نقل عن الذخيرة: «لو أرادت الإلقاء قبل مضي زمن ينفخ فيه الروح هل يباح لها ذلك أم لا؟ اختلفوا فيه وكان الفقيه علي بن موسى يقول إنه يكره: فإن الماء بعد ما وقع في الرحم مآله الحياة فيكون له حكم الحياة كما في بيضة صيد الحرم»[٦] وبهذا الرأي أخذ ابن وهبان كما في الظهيرية وإليه جنح بعض المالكية فيما قبل الأربعين يوماً[٧]، وصرح الرملي من الشافعية بمثله في

---

(١) الشرح الكبير. حاشية الدسوقي: ٢، ٢٦٦-٢٦٧.
(٢) ابن رشد. البداية: ٢، ٣٤٨.
(٣) الاقناع: ٤، ٤٠.
(٤) الغزالي. الإحياء: ٢، ٤٧-٤٨.
(٥) الإنصاف: ١، ٣٨٦. المغني: ٧، ٨١٦.
(٦) ابن عابدين: ٢، ٣٨٠.
(٧) الشرح الكبير حاشية الدسوقي: ٢، ٢٦٦-٢٦٧.

قوله: «لا يقال في الإجهاض قبل نفخ الروح إنه خلاف الأولى، بل محتمل للتنزيه والتحريم. ويقوى التحريم فيما قرب من زمن النفخ لأنه جريمة[١].

الوجهة الثالثة وهي أوسعها: القول بإباحة الإجهاض مطلقاً لعذر ولغير عذر قبل نفخ الروح، وهو مذهب بعض الحنفية. جاء في فتح القدير: «يباح الإجهاض ما لم يتخلق منه شيء أي قبل نفخ الروح، ولا يكون ذلك إلا بعد مائة وعشرين يوماً. وهذا يقتضي أنهم أرادوا بالتخليق نفخ الروح وإلا فهو غلط لأن التخلق يتحقق بالمشاهدة قبل هذه المدة»[٢].

وبالإباحة المطلقة أيضاً ورد كلام اللخمي من المالكية في ما قبل الأربعين يوماً،

ذكر ذلك الرهوني[٣]، ونص على مثله الشرواني في ما نقله من كلام المروزي من الشافعية[٤]. وبه قال أبو بكر بن أبي سعيد الفراتي في ما أجاب به الكرابيسي حين سأله عن رجل سقى جاريته شراباً لتسقط ولدها. قال: ما دامت نطفة أو علقة فواسع له ذلك إن شاء الله[٥]. وهو قول بعض الحنابلة أيضاً: إذا حصل الإسقاط في أول مدة الحمل. وقد أجازوا للمرأة شرب الدواء المباح لإلقاء النطفة لا العلقة، وقال ابن عقيل في تعليله: إن ما لم تحله الروح لا يبعث[٦].

الوجهة الرابعة القول بإباحة الإسقاط أيضاً ولكن لعذر، وهو مذهب أكثر الأحناف وهو مفاد ما ورد في الخانية من كتاب الكراهة حيث قال: «ولا أقول بالحل إذ المحرم لو كسر بيض الصيد ضمنه لأنه أصل الصيد فلما كان يؤخذ بالجزاء فلا أقل من أن يلحقها إثم هنا إذا أسقطت بغير عذر»[٧].

---

(١) نهاية المحتاج: ٨، ٤١٦.
(٢) فتح القدير: ٢: ٤٩٥.
(٣) الرهوني: ٣، ٢٦٤.
(٤) الشرواني: ٦: ٢٤٨
(٥) نهاية المحتاج: ٨، ٤١٦.
(٦) الفروع: ٦، ١٩١، غاية المنتهى: ١، ٨١، كشاف القناع: ٦، ٥٤.
(٧) ابن عابدين: ٢، ٣٨٠.

وبشأن إسقاط جنين السفاح قال الرملي: «لو كانت النطفة من زنا فقد يتخيل الجواز قبل نفخ الروح»(١). ونقل عن الزركشي أنه قال: «إن المرأة لو دعته ضرورة لشرب دواء مباح يترتب عليه الإجهاض فينبغي أنها لا تضمن بسببه»(٢).

وقال ابن وهبان: «إن إباحة الإسقاط محمولة على حالة الضرورة»(٣) وهذا يختلف باختلاف الزمان فينتبه له، إذ ليس كل عذر قام في بعض العصور يعتد به في عصر آخر ويعتمد، وقد تظهر من الضرورات والأعذار في العصور المتأخرة ما لم يذكره المتقدمون من الفقهاء أو ينصوا عليه فتقدر الأحكام بقدرها.

وتفصيل الوجهات التي ذكرناها يتعلق بصفة عامة بأحكام إسقاط الجنين السوي.

وكما قال الدكتور با سلامة يمثل ٩٩٪ من عموم الولادات، كما يتعلق أيضاً بالمعاقين وأصحاب التشوهات الخلقية الذين تتراوح نسبتهم بين ١-٥, ١٪(٤)، وهؤلاء في مجموعهم يمثلون حالات مرضية أو صوراً متولدة عن حالات مرضية تعرض للمرأة الحامل أو للرجل صاحب النطفة أو لكلا الطرفين.

وقد عرف القدامى حالات كثيرة من الإجهاض التلقائي للأجنة المشوهة التي تطرحها الأرحام، ولكنهم لم يجدوا لها تفسيراً غير الإصابة ببعض الأمراض كالسرطان أو أسباب واضحة معلومة غير الضرب والاعتداء والإخافة ونحو ذلك.

وبتطور الأحوال وتغير الزمان وتقدم البحوث والتجارب والعلوم الطبية تبين للدارسين أن أخطر مرحلة لظهور التشوهات الخلقية بالجنين هي الخمسة وأربعين يوماً الأولى من الحمل، وهي كما قدمنا أدق مراحل التكوّن

---

(١) نهاية المحتاج: ٨، ٤١٦.
(٢) حاشية البحيري: ٤، ١٢٩.
(٣) ابن عابدين: ٢، ٣٨٠.
(٤) د. با سلامة. الجنين تطوراته وتشوهاته: ١.

والتخلّق، وأكثرها قابلية لتأثّر الجنين بالإصابات التي تأتيه من الداخل أو من الخارج وتتسبب في طرحه ميتاً أو في تعطّل جزء منه عن حركة النمو والتكوين[١].

وقد فصّل العلماء القول في المؤتمرات في عوامل وأسباب التشوه الداخلية المعقدة والخارجية العامة، وقسموها إلى أربعة أنواع أساسية:

١-الأسباب البيئية وتمثّل ١٠٪ من مجموع حالات التشوّه.

٢-الأسباب الوراثية وتختلف نسبتها ٣٠-٤٠٪ من مجموع الحالات.

٣-الأسباب المتعددة البيئية الوراثية التي تبلغ أرفع نسبتها ٥٠-٦٠٪ من الحالات.

٤-الأسباب الميكانيكية ونسبتها ضئيلة لا ترتفع إلى أدنى نسبة من النسب السابقة[٢].

ولكن بحث هذه المسائل ليس من اختصاصنا وأن القول فيها قول الأطباء وهم المرجع والحجة في ذلك، ولكوننا لا نملك مجالاً لبسط القول عن العوامل والأسباب المرضية ونحوها المؤدية إلى التشوهات الخلقية، فإننا نكتفي للوقوف عندها للأهمية، ونحاول فقط الإلماع إلى ذلك تقريباً للأذهان، فنقتصر على جملة كافية من الأسباب المشار إليها.

أما الأسباب البيئية فقائمتها طويلة وتضم :

١- الفيروسات.

٢- العقاقير والمواد الكيميائية.

٣- الأشعة.

٤- أنواع الأخماج.

٥- العوامل الميكانيكية.

---

(١) د. با سلامة. الجنين تطوراته وتشوهاته: ١.

(٢) د. البار. التشوهات الخلقية: ١، ٤٨.

١- الفيروسات:

هي كثيرة منها الحصبة الألمانية التي نُشر بشأنها أول تقرير طبي ١٩٤١م، وفيروس الهربس الحلا البسيط، وفيروس تضخم الخلايا، تدخل جسم الأم وتنتقل عبر دمها إلى المشيمة، ومن المشيمة إلى الجنين، لتصيبه في كثير من الأحيان إصابات بالغة تسبب له تشوهات خلقية قد تكون مميتة له في بعض الأحوال فيجهض، أو بعد حين فيموت قبيل الولادة أو عقبها، أو يبقى مشوهاً فترة من الزمن حتى يحين الأجل المحتوم(١).

وتلحق بهذه الثلاثة مجموعة من الفيروسات الأخرى التي تصيب الأجنة وتسبب لها تشوهات أهمها: فيروس حمى النكاف، وفيروس التهاب الدماغ الفينزولي، وفيروس الحماق وفيروسات صدى، وفيروس التهاب الأحصنة الغربي الدماغي، وفيروسات الجدري، وجدري البقر، والتهاب الكبد الفيروسي (أوبَ) والانفلونزا، وفيروس شبيه بالحميراء(٢).

٢- العقاقير والمواد الكيميائية:

مثل التبغ والخمر والكحول والحشيش بأنواعه ومجموعة من العقاقير المسكنة وبعض الأدوية المستعملة في معالجة السكر والصرع والأورام السرطانية، كلها تتسبب على تفاوت بينها في التشوهات الخلقية عند الجنين(٣).

٣- الأشعة:

الأشعة السينية وغيرها تصيب الجنين بسبب تعرض أمه الحامل لها فتنشأ عنها طفرات في الموروثات وإخلال بالصبغيات ونقصان نمو داخل الرحم وخارجه، ومن نتائج ذلك التخلف العقلي مع صغر الدماغ، والشفة المشقوقة، والحنك المشقوق، وتشوهات بالعظام وبالأعضاء الداخلية، وما

---

(١) د. البار. التشوهات الخلقية: ٤٨، ٥١ – ٥٢.
(٢) د. البار. التشوهات الخلقية: ٥٤.
(٣) د. البار. التشوهات الخلقية: ٥٨ – ٦٢.

يحدث من إصابات للجهاز العصبي. ولهذا ينصح الأطباء لعدم تعريض الأم للأشعة وبخاصة في الأشهر الثلاثة الأولى(١).

٤- أنواع الأخماج:

مثل الالتهابات والأمراض المعدية والأمراض الجنسية والبكتيريا والطفيليات التي تصل إلى الجنين وتسبب به تشوهات خلقية(٢).

٥- العوامل الميكانيكية:

لا تسبب وحدها التشوهات إلا متى بلغت من القوة درجة يحدث معها انفجار١١٦ كيس السلي، ونقص السائل الأمنيوني قد يؤدي مثلاً إلى تشوهات في أطراف الجنين(٣).

وأما الأسباب الوراثية فإن العقل يقرها كالسابقة، ولها اعتبار في الشرع تدل عليه النصوص القرآنية، والأحاديث النبوية، والآثار، وأقوال الأئمة الفقهاء، كما لها مكانة في العلم تشهد لذلك جهود الدارسين واكتشافات الباحثين.

فمن النصوص القرآنية التي تومئ إلى ذلك قول الله عز وجل: ﴿ **وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَاءَ ذَلِكُمْ أَن تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُم مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ** ﴾ [النساء: ٢٤].

ومن الأحاديث النبوية ما أخرجه ابن ماجة وصححه الحاكم من حديث عائشة مرفوعاً: «تخيروا لنطفكم وانكحوا الأكفاء»(٤). وما كان منه صلى الله عليه وسلم مع ضمضم بن قتادة يشكو زوجته ويتهمها عنده قائلاً: إن امرأتي ولدت غلاماً أسود! فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: هل لك من إبل؟ قال: نعم، قال: ما ألوانها؟ قال: حمر، قال: هل فيها من أورق؟ قال: نعم. قال: أنى ترى ذلك؟ قال: أراه نزعه عرق. قال: فلعل هذا نزعه عرق.(٥).

---

(١) د. البار. التشوهات الخلقية: ٤٩ - ٥٠.
(٢) د. البار. التشوهات الخلقية: ٥١ وما بعدها.
(٣) د. البار. التشوهات الخلقية: ٦٣.
(٤) ابن حجر. الفتح: كتاب النكاح باب ١٢، ج٩، ١٢٥.
(٥) البغوي. شرح السنة: ٩، ٢٧٣ ، ٢٣٧٧.

ومن الآثار ما قاله عمر بن الخطاب رضي الله عنه لبني السائب: «قد أضويتم فانكحوا الغرائب»[١]. ومن أقوال الأئمة الفقهاء تعليل الشافعي جواز فسخ الزواج بسبب الجذام والبرص بقوله: «إن الولد الذي يأتي من مريض بأحد هذين الدائين قلما يسلم، وإن سلم أدرك نسله». قال ابن حجر الهيثمي: « »والجذام والبرص يعديان المعاشر والولد أو نسله كثيراً كما جزم به في الأم وحكاه عن الأطباء والمجربين في موضع آخر»[٢].

ومن هذه النصوص يعلم أن الإحصان بالزواج والبُعد عما حرّم الله من السفاح، وتخيّر المرأة التي ستكون مستقر النطفة وحاضنة الولد، والتسليم بأن العرق نزاع، واختيار النساء الأباعد على القريبات في النسب، وفسخ النكاح للمرض والعلة لم تكن بارزة بهذا الوضوح في الشريعة الإسلامية وفي الفقه الإسلامي إلا بناء على التسليم والقطع بأن الصفات والطباع والأمراض والعادات المغروزة في ركني الأسرة، المرأة والرجل، قابلة بدون شك للانتقال منهما إلى نسليهما، قرُبت رتبة النسل منهما أو بعُدت.

ويقرر العلماء أن المادة الوراثية تختزن في نواة الخلية الحية، وإن كل خلية حية سواء كانت نباتية أو حيوانية تحتوي على مجموعة من الصبغيات، وأن الخلية الواحدة في جسم الإنسان تضم ٤٦ كروموسوماً توجد على هيئة أزواج (٢٣ زوجاً) متماثلة إلا في خلية ذكر، وكل صفة وراثية توجد على هيئة متقابلة في كلا الزوجين من الصبغيات. ويبلغ تعداد المورثات أو الجينات في كل خلية ما لا يقل عن مائة ألف مورثة.

وتموت الخلايا في الجسم وتتجدد ويكون تجددها بتوالدها وانقسامها انقساماً عادياً يحدث في جميع أجزاء الجسم وخلاياه، واختزالياً ولا يحدث إلا في الغدة التناسلية[٣].

وهذه الخلايا تتعرض لأخلال تحدث فيها فتسبب إما زيادة في عدد

---

(١) العراقي. تخريج أحاديث الإحياء وكتاب آداب النكاح: ٧٢٤.
(٢) تحفة المحتاج على شرح المنهاج: ٧، ٣٤٧.
(٣) د. البار. التشوهات الخلقية: ٦٤ – ٦٧.

الكروموسومات التي تصير الخلية الواحدة ٢٤ صبغاً بدل ٢٣، أو نقصاناً فيها بنزول عدد الصبغيات إلى ٢٢، وإما زيادة أو نقصاناً في طول الكروموسوم نتيجة فقدان جزء منه أو إضافته إلى كروموسوم آخر، وهذه الصورة الأخيرة المعروفة بحالة الانتقال الكروموسومي إذا وجدت عند شخص فإن نسله يكون معرضاً لخلل في الصبغيات(١).

أما الحالة الأولى المتمثلة في نقصان عدد الكرموسومات في الخلية الواحدة أو زيادتها فهي ناتجة عن عدم فك الارتباط بين صبغين، وتُعرف باختلال الصيغة الصبغية. وهي إن كانت بالنقص سميت ذات الجسيمات الأحادية، ولها نوعان باعتبار الصبغيات المصابة، لأن هذه إما أن تكون جسدية وإما جنسية، فالجسدية نادرة وهي لا ترحم فقلما يولد الجنين بها وهو معرض بسببها للإجهاض التلقائي. والجنسية موجودة أكثر وتعرف بمتلازمة ترنر، ولا تزيد حالاتها في المواليد عن حالة واحدة فوق عشرة آلاف، وصورها مختلفة بين بسيطة ومعقدة، وهذه الأخيرة تعرف بالفسيفساء لتداخل أنواع الخلل فيها وتشابكها، وفي كل الصور والحالات لهذا المرض أو الاختلال بالنقص في الكروموسومات يتجه تكوين جسم الجنين إلى شكل أنثى لها رحم إلا أنها لا تحيض أبداً كما فصلنا القول في ذلك عند بحثنا لصور الخنثى الكاذبة.

ومن العيوب المتولدة عن حالات ترنر ما يصيب العظام والمفاصل من عاهات، وقصر الرقبة التي تكون مغشاة بوترة، وظهور تشوهات خلقية داخلية في القلب والأوعية الدموية الكبيرة. ولا علاقة لهذا الداء وعوارضه بسن المرأة اثناء الحمل، ولكنه كما أسلفنا ناجم عن عدم فك الارتباط بين الكروموسومات في مرحلة الانقسام الاختزالي في الخصية أو المبيض(٢).

وإذا كانت الحالة الناجمة عن عدم الانفكاك قائمة على الزيادة في عدد

---

(١) د. البار. التشوهات الخلقية: ٦٨ – ٧٠.
(٢) د. البار. التشوهات الخلقية: ٧٠ – ٧١.

الكروموسومات لا على النقص فتلك هي المعروفة بالجسيمات الثلاثية، وهي أيضاً إما أن تصيب الكروموسومات الجسدية، وإما أن تظهر في الكروموسومات ١٢٠ الجنسية، وفي هذا العصر أي من عشرين سنة خلت تقريباً اكتشف العلماء أربعة أنواع للجسيمات الثلاثية الجسدية:

١- الجسيمات الثلاثية رقم ٢٢ وهي شديدة الندرة ولا داعي هنا للخوض فيها.

٢- الجسيمات الثلاثية رقم ٢١ وهي المعروفة بمتلازمة داون أو بالماغولية. وضحيتها يصاب بالتخلف العقلي والعتة، وتكون رأسه مستطيلة، وأرنبة أنفه منخفضة، وجفونه مائلة إلى أعلى، واللسان متدلٍ من الفم، وخط التغضن في راحة يده شبيه بما يُلاحظ لدى القردة، وخنصره غريب الشكل، وله عيوب خلقية في القلب.

وللتعرف على هذه الحالة في الجنين يجري فحص السلي لتحديد وجود الخلل الصبغي، وظهورها تتفاوت نسبته بحسب سن الحامل. فإن كانت دون الخمس وعشرين سنة فاحتمال إصابة الجنين بهذا النوع من التشوه الخلقي لا تزيد على واحد من كل ألفي ولادة، وإن كان سنها قد بلغ الأربعين أو تجاوزها فالاحتمال أقوى ويرتفع إلى واحد على كل مائة ولادة[٢].

٣- الجسيمات الثلاثية رقم ١٨ وهي أندر وقوعاً من متلازمة داون، فهي بنسبة حالة واحدة على ٨٠٠٠ ولادة، وترتفع هذه النسبة أيضاً بحسب تقدم سن الحامل.

ويترتب على وجود هذا المرض ولد مصاب بالتخلف العقلي الشديد، بطيء النمو النفسي والجسدي والعقلي، بارز القفا قصير القص، مثقوب الجدار الفاصل بين ١٢١بطني القلب، ذو تشوه في الأذنين مع انخفاض موقعهما، منثني الأصابع مشوه الأظافر، تشبه أقدامه المعزة[٢].

---

(١) د. البار. التشوهات الخلقية: ٧٢ - ٧٣.
(٢) د. البار. التشوهات الخلقية: ٧٣ - ٧٤.

٤- الجسيمات الثلاثية رقم ١٣ وهي حالة نادرة الحدوث أيضاً إذ تبلغ نسبة الإصابة بها ١ على ٧٠٠٠ ولادة، وتزيد نسبتها مع تقدم سن الحامل كسابقتيها، والإصابة والتشوهات التي تصحبها هي التخلف العقلي الشديد، والجبهة المنحدرة والآذان المشوهة وعيوب في فروة الرأس، وصغر حجم العين، والشفة المشقوقة من الجانبين، والحنك المشقوق والزيادة في عدد أصابع اليد والقدم، وبروز عقب القدم بروزاً معيباً(١).

والجسيمات الثلاثية الجنسية وهي التي تظهر في كروموسومات الغدد الجنسية تنشأ أيضاً عن عدم فك الارتباط أثناء الانقسام الاختزالي في الخصية أو في المبيض. وهي لا تُكتشف أثناء الحمل ولا عند الولادة، ولكنها تظهر لدى المصابين بها بعد البلوغ. وهي عبارة عن متلازمة كلنفلتر التي تقوم على وجود صبغي الأنوثة مع صبغ واحد للذكورة، وهذا الخلل الصبغي يجعل الجنين يتجه إلى نموه كذكر ولكنه بارد الهمة، ضعيف الإرادة، عنين، لا تنتج خصيتاه حيواناً منوياً، وتكون قنياته المنوية ضامرة، وخلايا النطف منعدمة، ثم هو بعد بلوغه تظهر به شيات الأنوثة من الثديين والدهن في الأردان والعجز(٢).

والصورة الثانية للجسيمات الثلاثية الجنسية هي التي تظهر بزيادة كروموسومات الذكورة عن حدها الطبيعي، وهذا النوع لا تظهر فيه عاهات أو إعاقات، ولكن يتميز بزيادة في الطول كما يتسم بالجرأة والإقدام والعنف(٣).

ولا تقف قائمة الأمراض والتشوهات عند هذا الحد، فإن للخلل التركيبي في الكروموسومات أيضاً إعاقاته وعيوبه الخلقية التي تظهر في حالات الانتقال والحذف

والكروموسوم الحلقي والمضاعفة المزدوجة والانقسام الصبغي المتماثل،

---

(١) د. البار. التشوهات الخلقية: ٧٤.
(٢) د. البار. التشوهات الخلقية: ٧٥ - ٧٦.
(٣) د. البار. التشوهات الخلقية: ٧٦.

وهي كلها تسبب عاهات متولدة غالبها عن العوامل البيئية الخارجية التي ذكرناها آنفاً[١].

ومن ثم فإن هذه النذر المفزعة وما يرى من آياتها في المجتمعات الإنسانية قد ملأت النفوس رعباً والأزواج فرقاً ﴿**وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ**﴾ [**النحل**: ١١٨].

وإلى جانب دور المعاقين وذوي العاهات التي أسرعت إلى إنشائها في هذا العصر الحكومات والهيئات الخيرية ومؤسسات البر فإن الهلع في الأوساط العلمية والطبية قد دفع بالخبراء والأخصائيين إلى الجد في ميادين البحث، فبدأوا أولاً باستخدام الوسائل المتاحة لتحديد وجود الأمراض والتشوهات وحتى توقعها وكان ذلك إما قبل الحمل:

١- عن طريق الاستشارة الوراثية قبل الزواج عند اختيار الشريك ويكون ذلك بإجراء فحوص وتحاليل للمرشحين لاحتمال حدوث تشوهات بالأجنة تنذر بها بعض العوارض مثل ضمور العضلات والنزف الدموي[٢].

وقد يكون التشخيص أثناء الحمل بأخذ عينة من دم الأم لتحليلها وفحصها أو بأخذ عينة من السائل الأمنيوني المحيط بالجنين لتحليل خلايا الجنين وللتأكد في الحالتين من تحديد نوعية الفافتو بروتين[٣].

٢- عن طريق التاريخ الوراثي للأمراض في الأسرة ويكون هذا ببحث المرأة الحامل للوقوف على طبيعة الحمل السابق لها إن كان، وعلى الأحوال الصحية للأبناء والأخوة، وللتأكد من وجود جنين أو طفل مشوه خلقياً فيها. وكلما كانت الاستشارة الوراثية قبل الزواج كان ذلك أفضل.

وقد يُلجأ في التشخيص إلى منظار رؤية الجنين داخل الرحم أو تصويره به باستخدام الموجات فوق الصوتية، وبالاستعانة بالأشعة السينية[٤].

---

(١) د. البار. التشوهات الخلقية: ٧٨ – ٨٤.
(٢) د. البار. التشوهات الخلقية: ٨٧ – ٩٣. د. با سلامة، ٣.
(٣) د. با سلامة: ٣,
(٤) د. با سلامة: ٤.

ويقول د. با سلامة: بعض الوسائل المستخدمة في تشخيص التشوهات الخلقية داخل الرحم وخاصة أخذ العينة من السائل المحيط بالجنين أو من أنسجة الجنين، أو تنظير الجنين لا تخلو من مخاطر على الأم والجنين[١].

ولا بد في نهاية هذا العرض الملخص من كلام الأطباء الأخصائيين من ملاحظة أن التشوهات الخلقية منها ما يظهر في الأسبوعين الأولين من الحمل وتكون شديدة وتنتهي بالطرح التلقائي، ومنها ما يظهر في مرحلة تخلّق الأعضاء، أي بين الأسبوعين الثالث والثامن وهذه أيضاً شديدة.

ومنها ما لا يظهر إلا بعد ستين يوماً من الإخصاب، وهي طفيفة فيما عدا ما يصيب العين أو الجهاز العصبي، ورغم أن التشوهات قد تكون طفيفة إلا أن تأثيرها على المستوى الوظيفي قد يكون كبيراً[٢].

ومن يتبين هذه الحقائق وما تجر إليه من أحوال يدرك أنه من الممكن تنويع التشوهات إلى بسيطة، وممكنة العلاج، وخطيرة، ومتعذرة العلاج.

فالأولى: أمرها هين ولا تتسبب في إجهاض تلقائي كما لا تقتضي إسقاطاً طبياً علاجياً.

والثانية: مثله وهي الممكنة العلاج، فقد تطورت الوسائل العلمية من جراحة ونحوها لإزالتها تماماً أو التخفيف منها، وقد تكون مداواتها والجنين في الرحم، أو يتم علاجها بالطرق المناسبة عقب الولادة مباشرة، أو بعد فترة من الولادة.

والثالثة والرابعة هما الخطيرة والمتعذرة العلاج.

ومهما يكن من أمر هذه التشوهات فإن اجتناب التعرض إليها وإلى العوامل والأسباب المقتضية لوجودها يبقى حجر الزاوية والأصل في تفاديها، وذلك بالاستقامة الدينية، أي بالبعد عن المؤثرات البيئية المختلفة من إدمان على المسكرات وعلى المخدرات، وبالبعد عن السفاح وعما تنتشر به الأمراض الجنسية، وبتجنب العقاقير والمركبات الكيميائية ، وكذلك بالتوقي من الأشعة بأنواعها وخاصة عند أولات الحمل، وربما كان اللجوء إلى العزل والتعقيم

---

(١) د. با سلامة: ٥.

(٢) د. البار. التشوهات الخلقية: ٨٦.

الموقوت أو نحوه من الوسائل الوقائية من حدوث الحمل طريقاً لتجنب هذه المخاطر وبالخصوص عند أصحاب الأمراض الوراثية.

أما الإجهاض الطبي في الحالتين الأولى والثانية فليس له من مبرر يذكر كما قدمنا، ولا يقره أكثر الأئمة والفقهاء، ولا يرضاه الأطباء ويعتبرونه جناية على حي سواء كان قبل نفخ الروح أو بعده.

وأما في الحالتين الثالثة والرابعة فإن الإجهاض قبل مائة وعشرين يوماً، أي قبل مرور الجنين بالتارات السبع، وإن أباه المالكية والظاهرية لأنه قضاء على حي سيكون بالأيلولة إنساناً فقد أجازه أكثر الحنفية، وكذلك اللخمي من المالكية فيما قبل الأربعين يوماً، وبعض الحنابلة إذا حصل الإسقاط في أول مدة الحمل كما سبق بيانه، وصرح ابن عقيل بأن ما لم تحله الروح لا يُبعث، وإن جواز الإجهاض ليتأكد في تينك الحالتين الخطيرة والمتعذرة العلاج، سواء كان السبب فيها وراثياً أو بيئياً أو مزدوجاً للعذر القائم والضرورة المعتبرة الموجودة والمستندة إلى الأدلة العلمية والكشوف والتحاليل الثابتة اليقينية. ولذلك فإن المرجع في تقرير هذه الأعذار والضرورات الأطباء المسلمون المختصون.

وبعد نفخ الروح أي مرور مائة وعشرين يوماً على الإخصاب فإن الإجهاض، وإن أجازه الغربيون، ترفضه المبادئ الدينية وتأباه الأصول الشرعية، والفقهاء كلهم مجمعون على منعه وحرمته ويعتبرونه قتلاً للنفس التي حرّم الله إلا إذا ألجأت إليه ضرورة معتبرة عند البعض.

وما يدرينا بأن للخالق العليم الحكيم سراً في بقاء هؤلاء المشوهين على ما هم عليه من التشوّه، كأن يكون فيم وبهم موعظة وعبرة للناس، ويكون لهم في الآخرة أجزل التعويض عن إعاقتهم من المنعم الرحيم جلّ جلاله.

وهكذا تتمايز الأحكام بصورة واضحة إن شاء الله، بحسب أنواع التشوّه، وبحسب الزمن الذي يُراد الإجهاض فيه.

فإن أصبت فمن الله، وإن أخطأت فمن نفسي ومن الشيطان، والله الكريم العظيم أسأل التوفيق والسداد وهو حسبي ونعم الوكيل.